السلطان الأشرف طومان باي حياته وصراعه مع العثمانين حتى عام ١٥١٧دراسة تاريخية

أ.م.د. ايلاف عاصم مصطفى
كلية التربية الاساسية -الجامعة المستنصرية

elaf.aseem23@gmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٢/٩/١٦
تاريخ القبول: ٢٠٢٢/١١/١٩

المخلص

هذه الدراسة التاريخية تسلط الضوء على فترة مهمة من تاريخ مصر ألا وهي الفترة الأخيرة من حكم المماليك لمصر ابان عهد السلطان طومان باي آخر السلاطين الشراكسة الذي بذل جهود كبيرة من اجل انقاذ ملكه وابعاد الخطر العثماني عن حدود دولته ، لكن كانت الظروف اقوى منه فاغلب امراء المماليك خانوا العهد الذي قطعوه له بأن اقسموا على المصحف الشريف بان يشدو على ساعده ويقفون معه ولا يخونو، فضلا عن ذلك فان الخطر العثماني المتنامي بعد احتلالهم لبلاد الشام اخذ يهدد حدود القاهرة وبقية مدن مصر، فكانت المواجهة حتمية لامناص منها رغم التفوق العددي بين المماليك والعثمانين وتطور الاسلحة العثمانية قياساً باسلحة المماليك البدائية واساليب القتال القديمة.

لقد دفع طومان باي حياته ثمن خيانة رفاقه الامراء الذين ما لبثوا ان دخلوا في طاعة السلطان العثماني سليم الاول عند دخوله القاهرة وبايعوه وخطبوا باسمه من على منابر المساجد، ناسين ان دولتهم أنهارت الى الابد ولم يبقى منها الا شواخص.

وعليه فعلى الرغم من هزيمة طومان باي واعدامه الا انه كان مثار اعجاب الاعداء قبل الاصدقاء فقد صمد ودافع وقاتل اعداءه حتى الرمق الأخير وقد أنصفه المؤرخين أنفسهم الذين درسوا تلك الحقبة واشادوا به وبشجاعته النادرة.

الكلمات المفتاحية: طومان باي، الدولة العثمانية، المماليك، مصر، القاهرة

Summary

This historical study highlights an important period in the history of Egypt, namely the last period of the Mamluk rule of Egypt during the reign of Sultan Touman Bay, the last of the Circassian sultans, who made great efforts to save his king and keep the Ottoman danger away from the borders of his state, but the circumstances were stronger than him, most of the Mamluk princes Moreover, the growing Ottoman threat after their occupation of the Levant threatened the borders of Cairo and the rest of Egypt, so the confrontation was inevitable despite the numerical superiority among the Mamluks. The Ottomans and the development of Ottoman weapons in relation to the primitive Mamluk weapons and old fighting methods.

Toman bay paid the price for the betrayal of his fellow princes, who soon entered into obedience to the Ottoman Sultan Salim I when he entered Cairo and sold him and addressed his name from the pulpit of mosques, forgetting that their state had collapsed forever and there were only a few thorns left.

Therefore, despite the defeat of Toman Bay and his execution, he was admired by the enemies before the friends, he stood up and defended and fought his enemies until the last breath, and the historians themselves who studied that era and praised him and his rare courage.

Keywords: Tuman Bey, Ottoman Empire, Mamluks, Egypt, Cairo.

المقدمة

حظي الصراع العثماني المملوكي باهتمام المؤرخين والباحثين،ولا زالت الدراسات التاريخية تسلط الضوء على ذلك الصراع المرير كون العرب هم من دفع ثمن ذلك النزاع الدامي فكما هو معروف بان المماليك قفزوا الى السلطة في غفلة من الزمن واخضعوا بلاد الشام ومصر تحت حكمهم ونهبوا خيرات البلاد والعباد.

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة التي تسلط الضوء على السنوات الاخيرة من حكم المماليك في مصر في عهد السلطان طومان باي الذي اعتلى عرش مصر عام ١٥١٦ عقب مقتل السلطان قانصوه الفوري في معركة مرج دابق، وقد حاول طومان باي أن ينهض بالبلاد وجعل مصر في مصاف البلدان المتقدمة حينها لكن ثمة عوامل داخلية وخارجية حالت دون ذلك فمن الناحية الداخلية ، كان الامراء وبعض المماليك يحيكون الدسائس بعضهم لبعض وكلمتهم وقلوبهم متفرقة ، فضلاً عن الوضع المتأزم منذ خروج السلطان الغوري لقتال العثمانيين والأضطرابات والفتن في الاسواق بين التجار والمماليك.

ومن ناحية اخرى كان التهديد الخارجي في أوج قوته المتمثل بالخطر العثماني ومحاولات السلطان سليم الاول احتلال مصر والقضاء على المماليك كل هذه العوامل مجتمعتاً جعلت طومان باي يتردد كثيراً في قبول السلطنة بادئ الامر.

وقد اعتبر البعض من المؤرخين ان تصدي طومان باي لسلطنة مصر في تلك الظروف كانت اشبه بالمغامرة السياسية فقد كان يعلم علم اليقين أن اتباعه لاطاقة لهم في قتال العثمانين وقد راهن على عامل الوقت وصلابته في ان ينتهي السلطان سليم الاول ويكتفي باحتلال بلاد الشام ، لكن الاحداث اثبتت عكس ذلك ، فقد كان احتلال مصر هدفاً استراتيجياً في سياسة سليم الاول الذي حاول ان يمهد الطريق لسلفه بان تكون الدولة العثمانية دولة بحرية بعد سيادتها على البحر المتوسط والاحمر ، وهنا سيكون الطريق معبداً لغزو اوربا عن طريق البحر .

ولكن مهما تكن النتائج، فقد دفع طومان باي حياته في سبيل الموقف الذي اتخذه واثبت شجاعة اشاد بها اعداءه قبل اصدقاءه، رغم خيانة بعض قادة المماليك الذين دخلوا في طاعة الدولة العثمانية قبل ان يدخل السلطان سليم القاهرة والتي عجلت بسقوط دولة المماليك في مصر الى الابد ، واصبحت القاهرة ولاية عثمانية تدفع الضرائب كما هو حال بقية الولايات العربية.

حياته واعماله في مصر

ولد الاشرف أبو النصر طومان باي في حلب سنة ١٤٧٤، وهو اخر السلاطين الشراكسة في مصر، كان قد اشتراه السلطان قانصوه الغوري[1]. وقدمه هدية الى السلطان قايتباي[3]. ومن أجل كسب وده والتقرب اليه.[2]

نشأ طومان باي وترعرع في القصر وكان محط اهتمام السلطان قايتباي الذي كان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً، وخصص له محلاً للإقامة يليق به، وأغدق عليه بالمال والخيل والغلمان، واستمر على ذلك حتى تولى قانصوه

الغوري مقاليد السلطة في مصر سنة ١٥٠١، فكان اعتماده الاول على طومان باي الذي نصبه اميراً على الجند .[4]

أستمر طومان باي يتقلد المناصب حتى وصل الى منصب (أمير طبلخانة) سنة ١٥٠٥، أي يتولى رئاسة اربعين فارساً من المقاتلين، وفي سنة ١٥٠٩ وبعد ان علم قانصوه الغوري عن مهاراته وشجاعته انعم عليه بمنصب (الداودار الكبير) وهو المنصب الذي يقوم بمتابعة الرسائل والمخاطبات التي تقدم للسلطان[5]. واثبت جداره ومهارة عالية كانت مثار اعجاب السلطان .[6]

تميز طومان باي بصفات حميدة فقد كان شجاعاً ذكياً محباً للخير والعمل به[0]، الامر الذي حدي بالسلطان انه ينعم عليه بالاشراف على حاشيته وخدمه وذلك عام ١٥١٠ .[7]

وفي عام ١٥١٢ كلف السلطان قانصوه الغوري طومان باي بمهمة قيادة ركب الحج، فسافر ومعه اعداداً كبيرة من الامراء والاعيان وبعض المشايخ والتجار، وعند عودته الى القاهرة سنة ١٥١١، استقبل استقبالاً كبيراً، ويذكر ابن إياس ذلك فيقول " وقد رجع من هذه السفرة والناس عنه راضية مرضية واشيع عنه أخبار حسنة مما فعله في الطريق الى الحج من البر والاحسان وفعل الخير، وحمل المنقطعين والصدقات بطول الطريق على الفقراء والمساكين، فشكر له الناس ذلك .[8]"

أثارت اعماله وصفاته حفيظة بعض الامراء الذين راحوا يألبون السلطان الغوري على طومان باي من اجل دق أسفين بين الاثنين، لاسيما وان السلطان كان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً في كل صغيرة وكبيرة، لكن محاولاتهم تلك بائت بالفشل الذريع .[9]

وقد جاءت الضربة القاضية لاعداء طومان باي سنة ١٥١٥، عندما أصدر السلطان الغوري مرسوماً يقضي بان يكون طومان باي نائباً للسلطان اثناء غيبته لقتال العثمانيين في الشام .[10]

وقد قام طومان باي بواجباته على أحسن وجه، وقد كبح جماح الامراء، وضرب الخارجين عن القانون وفرض سلطان الدولة على كافة ارجاء مصر.[11]

قبل ان تضطرب الاحوال العامة في مصر، بعد ورود الاخبار عن هزيمة المماليك أمام الجيش العثماني في معركة مرج دابق[12] في ٨ آب ١٥١٦، ومقتل السلطان الغوري قائد الجيش، ونتيجة لذلك اجتمع الامراء واهل العقد والحل لاختيار سلطان جديد لمصر يقود البلاد في المرحلة الحرجة التي تمر بها .[13]

وقد اجمع الامراء والقادة على اختيار طومان باي نائب السلطان الغوري ، الذي تردد كثيراً في قبول المنصب بسبب اضطراب الاوضاع الداخلية في مصر . والتهديدات العثمانية، فضلا عن تشتت مواقف الامراء فيما بينهم . [14]

عن ذلك يذكر أبن إياس " اجتمع راي الجميع في مصر على سلطنة طومان باي الدوادار وترشيح أمره لان يلي السلطنة فصار يمتنع عن ذلك غاية الامتناع والامراء كلهم يقولون له ما عندنا من نسلطه الا انت ولا محيد لك عنها طوعاً أو كرهاً .[15] "

ولكن مع ذلك أصر طومان باي على عدم توليه السلطنة، الامر الذي دفع القادة والامراء بالاستعانة بالشيخ ابو السعود الجارحي[16]، لأقناعه، وبعد مفاوضات مطولة وافق ولكن بشرط وهو ان يقسم الامراء على المصحف الشريف بان لا يخونوا العهد ولا يغدروا به وان يقبلوا بقوله وفعله فوافق الامراء واقسموا على المصحف .[17]

أنتشرت الاخبار في كافة أرجاء مصر بتولي طومان باي السلطنة، ونودي باسمه وارتفعت الاصوات بالدعاء له، وخطب باسمه من على المنابر في تشرين الاول ١٥١٦ . [18]

كانت اولى مهامه التصدي للخطر العثماني الذي يهدد مملكته، ومن اجل ذلك كان لزاماً عليه تعزيز جبهته الداخلية وتوحيد الصفوف للوقوف بوجه المخاطر المحدقة بالبلاد . [19]

اجتمع في بداية الامر مع بعض المماليك الذين ثاروا ونهبوا بعض الدكاكين في سوق ابن طولون وأقنعهم برد ما نهبوه وارضاهم[20] . ثم توجه على رأس قوة من العساكر لاقناع قبيلتي بني عدي وبني كلاب بوقف الفتنة ومساعدته بالتوجه لقتال العثمانين وضرورة عودة الامان الى ديارهم .[21]

ثم بدء بحملة تجهيز الجيش وامر صانعي السيوف ببذل مزيداً من الجهود لتجهيز قواته بالسلاح[22] . كما اشترى اسلحة جديدة من البندقية عن طريق التجار الايطاليين واقام خطوط دفاعية عند منطقة الصالحية لعرقلة الجيش العثماني، رفض بعض المماليك قتال العثمانيين وكان رأيهم ان يتم اقناعهم بطرق سلمية لتجنيب البلاد الحرب او مهادنة العثمانين الى اجل اخر لكن طومان باي رفض فكرة الاستسلام وأصر على الدفاع عن ملكه .[23]

وبعد ان رفض المماليك الوقوف مع طومان باي لمواجهة العثمانيين، اضطر الى تجنيد العربان والمجرمين بعد ان أعفي عنهم مقابل الانضمام للجيش المملوكي وفرض اتاوة على بعض التجار من اجل ادامة نفقات الجيش، الامر الذي ولد سخطاً كبيراً على السلطان من قبل التجار والاعيان وبعض الامراء .[24]

قام طومان باي بسحب القوات الى القاهرة بالقرب من منطقة الريدانية[25] حيث امر جنوده بحفر الخنادق واقامة الاسوار وزرع الحواجز المضادة للخيول، وشكلت العربات سداً من اجل حماية المدفعية، كما اقاموا حواجز ترابية وسواتر بغية عرقلة الجيش العثماني .[26]

كان تعداد الجيش المملوكي قرابة اربعين الفاً بمن فيهم عشرون ألف فارس من المماليك والبدو[27]، وكان طومان باي يدرك انه قادته لايقوون على قتال الجيش العثماني المزود بالاسلحة الحديثة ومعنوياته العالية، فضلا عن ذلك، فأنه كان يخشى من خيانة بعض الامراء والمماليك له في حالة نشوب الحرب .[28]

أرسل طومان باي رسولاً من عنده الى الشاه اسماعيل الصفوي [29] طالباً منه المساعدة في الوقوف بوجه العثمانين ، مستغلا الخلافات بين الدولة العثمانية والصفويين ، لاسيما في حروبهم الاخيرة ، لكن الشاه أمتنع عن ذلك بذريعة ان جراح معركة جالديران[30] ، لم تشفى بعد ، وان جيشه لم يكن مهيئاً للدخول في معارك مع العثمانين ، فاغلب قادته أسرى والعثمانين نهبوا الاموال الصفوية ، وبذلك خسر طومان باي حليفاً قوياً كان بامكانه ان يغير معادلة الاستراتيجيات العسكرية بين العثمانين والمماليك ، لذلك كانت المواجهة حتمية بين الطرفين ولا مناص منها .[31]

المواجهة المملوكية – العثمانية

بعد أن انتصر السلطان العثماني سليم الاول [32] . على المماليك في معركة مرج دابق اندفع بقواته باتجاه مصر، وهو في حالة معنوية مرتفعة، فأرسل الى طومان باي مبعوثه يعرض عليه الصلح بشرط الدخول في طاعته واعترافه بتبعية مصر الى الدولة العثمانية، فرفض طومان باي العرض وامر اتباعه بقتل الرسل[33] أثار ذلك العمل غضب السلطان سليم فأرسل رسالة لطومان باي ذكره باصلي المملوكي قائلاً " أنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح لك ولاية ملك .[34]"

وجاء في مضمون الرسالة ايضاً " وان لم تدخل في طاعتنا والا ادخل مصر واقتل جميع من بها من الاتراك، حتى اشق بطون الحوامل واقتل الجنين الذي في بطنها من الاتراك . [35]"

اضطربت الاحوال في مصر بعد هذه الرسالة ودب الخوف والرعب في نفوس الناس من بطش العثمانين فيما لو دخلوا مصر[36] ، لكن طومان باي وجنوده أستمروا في التحضيرات للمعركة مع وصول طلائع الجيش العثماني الى منطقة بركة الحاج بضواحي القاهرة حيث عسكروا هناك . [37]

في ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧ اشتبك الجيشين في معركة ضارية ، فقتل فيها من الطرفين اعداد كبيرة ، عن ذلك يقول أبن إياس " اقبل جند ابن عثمان كالجراد فتلاقى الجيشان اوائل الريدانية فكان من الجيشين معركة مهولة وقتل من العثمانين ما لايعد ولا يحصى ومنهم سنان باشا[38] قائد جيش ابن عثمان[39]"، وعلى الرغم من خيانة بعض قادة المماليك فقد اظهر الفرسان شجاعة منقطعة النظير ، فقد كانوا يغيرون على العثمانين من كل حدب وصوب وعلى راسهم طومان باي الذي أشتبه بين السلطان سيم الاول والصدر الاعظم الذي قتله طعناً ، فنجى السلطان سليم الاول باعجوبة من تلك المعركة[40]، إلا ان استخدام العثمانين للمدافع قلب المعادلة واظهر الجيش العثماني تفوقاً ملحوظاً امام انسحاب المماليك الى الخلف باتجاه الفسطاط . [41]

وفي ٢٦ كانون الثاني ١٥١٧ اندفع الجيش العثماني باتجاه القاهرة ودخلوها دون مقاومة تذكر ، باستثناء بعض الاشتباكات التي حدثت على اطرافها ، قبل ان يتمكن العثمانين من القضاء عليها . [42]

أعلن السلطان سليم الاول لاهل القاهرة الامان ودعاهم الى ممارسة اعمالهم اليومية والبيع والشراء في الاسواق مخاطباً اياهم "اليوم اغلق باب الظلم وفتح باب العدل .[43]"

أجتمع السلطان سليم بالتجار والقضاة والخليفة العباسي المتوكل على الله[44] الذي حظر معه في الحملة ودعاهم الى الخطبة من على المنابر باسمه ، وامر بازالة المتاريس من على الطرقات وحمل الجيش الجثث الى اماكن اخرى لدفنها .[45]

ثم انتقل السلطان سليم وجنوده الى بولاق [46] ، لتصفية بقايا المماليك الذين كانوا يقطنون في تلك المدينة .[47]

ظن العثمانين ان المقاومة المملوكية انتهت ، لكن طومان باي ومعه ما تبقى من جيشه هاجموا الجيش العثماني في القاهرة يوم ٢٨ كانون الثاني ١٥١٧ واوقعوا فيهم خسائر فادحة ، واستمر القتال ثلاثة ايام كاملة في شوارع القاهرة، اضطر بعدها طومان باي الى الانسحاب الى منطقة الجيزة لاعادة تجهيزات قواته ، فعاد ومعه الفين من امهر فرسان المماليك والتقى الجيشان العثماني والمملوكي قرب الجيزة ودارت رحى معركة طاحنة اجبرت العثمانين على التراجع ، لكن القتائد العثماني شادي بك رفض الهزيمة وطلب المساعدة من قياداته التي عززت القوات العثمانية بالف جندي من صفوت القوات ، وانزلت الهزيمة بالمماليك .[48]

عرض السلطان سليم الصلح على طومان باي ومنحه الامان ، مقابل ان يسلم نفسه الى القوات العثمانية، لكن المماليك اقنعوا طومان باي بان الصلح مجرد خديعة لالقاء القبض عليه ، لاسيما بعد المذبحة التي اقدم عليها الجيش العثماني بحق الاسرى الذين وقعوا بايدهم حيث قاموا بقطع رؤوسهم وعلقوها على مساند خشبية وزينوا بها مداخل القاهرة .[49]

لم يكن امام طومان باي الا الهروب خارج القاهرة والاختباء هناك، لاسيما بعد ان تخلى عنه قواده وامراءه، فتنكر ولجأ عند أحد المشايخ

بالبحيرة، لكن السلطان سليم بقي قلقاً من هرب طومان باي ، فلم يهدأ له بال حتى يلقي القبض عليه ، خوفاً من امكانية عودته الى الحكم.[50]

أمر السلطان سليم بتقسم جيشه الى اربع فرق الاولى بقيادته والثانية بقيادة جان بردي الغزالي[51] والثالثة بقيادة يونس باشا .[52]

أما الرابعة فكانت بقيادة قائد الانكشارية إياس باشا[53] وامرهم بالبحث عن طومان باي والقبض عليه.[54]

كان طومان باي قد لجأ أخيراً عند احد شيوخ العربان المدعو حسن بن مرعي، الذي كان صديقا حميماً لطومان باي وكان الاخير صاحب افضال كبيرة عليه فهو الذي اخرجه من السجن في عهد قانصوه الغوري يقول أبن اياس "كان حسن بن مرعي اعز اصحاب طومان باي وله عليه غاية الفضل والمساعدات من ايام السلطان الغوري واقام عنه بما عليه من مال " [55]، الذي كان يدرك بخطروة سليم الاول في حالة القبض على طومان باي عنده ، فتطوع واخبر العثمانين بمكانه ، مقابل ان ياخذ حصان طومان باي فكان له ما اراد .[56]

نهاية طومان باي

امر السلطان سليم جنوده بالاسراع في القبض على طومان باي ، الذي لم يستسلم بسهولة، لكن كثرة الجنود جعلته يقع في الاسر ، وجيئ به مكبلا بالقيود الى معسكر السلطان سليم في أمبابة ، وادخل على السلطان ودار بينهم حديث عن سبب مقاومته للعثمانين على الرغم من هزيمة جيشه ، فبرر طومان باي ان الخيانة هي سبب الهزيمة ، فاعجب السلطان سليم بحديثه وقال لاتباعه " والله هذا الرجل لايقتل ولكن أخروه في الترسيم حتى ننظر في أمره "[57].

لكن الشراكسة الذين كانوا مع المماليك والتحقوا بخدمة العثمانين كانوا يخشون من نقمة طومان باي ما دام على قيد الحياة ولربما يعفو عنه السلطان سليم ويطلق سراحه فيعود وينتقم منهم ، لذلك كانوا يكيدون المكائد والدسائس من اجل الاسراع في قتل طومان باي .[58]

لعب خاير بك [59] وجان بردي الغزالي دوراً كبيراً في وضع حد لنهاية طومان باي عندما اخبروا السلطان سليم بان ثمة شائعات تدور في مصر مفادها أن طومان باي هرب من السجن وبدء باعادة تنظيم جنوده من جديد ، ليقاتل العثمانين ويطردهم من مصر، وانه ارسل رسله الى العربان والبدو يدعوهم للوقوف معه .[60]

كانت تلك الانباء بمثابة الصاعقة التي نزلت على رأس السلطان سليم ، فقام باجبار طومان باي بالسير مقيداً بالاصفاد في شوارع القاهرة، من اجل ان يثبت للاهالي ان طومان باي لايزال في قبضته ولا صحة للشائعات عن هروبه.[61]

وعندما وصل الموكب الى باب زويلة احد الابواب الرئيسية في القاهرة ، سلم طومان باي الى علي باشا دلقدار اوغلوا[62] ليعدمه .[63]

شنق طومان باي يوم ١٤ نيسان ١٥١٧ ، امام الناس ، وبقيت جثته معلقة لثلاث ايام ثم انزل ودفنت جثته في مقبرة خلف مدرسة السلطان الغوري ، ويصف ابن اياس ذلك اليوم فيقول " كان الناس في القاهرة قد خرجوا ليلقوا نظرة الوداع على سلطان مصر وتطلع طومان باي الى قبو البوابة فرأى حبلا يتدلى فأدرك نهايته قد حانت فترجل وتقدم نحو الباب بخطى ثابتة ثم توقف وتلفت الى الناس الذين احتشدوا من حول باب زويلة وتطلع اليهم طويلا وطلب من الجميع ان يقرؤو له الفاتحة ثلاث مرات ثم التفت الى الجلاد وطلب منه ان يقوم بمهمته ، فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والاسف فانه كان شاباً حسن الشكل كريم الاخلاق سنه نحو اربع واربعون سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان.[64]"

أما عن قضية تكريم طومان باي باقامة جنازة مهيبة تليق به حضرها ابرز قادة الجيش العثماني فضر عن قيام السلطان سليم الاول بتوزيع النقود الذهبية ترحماً ونوراً على روحه فهذا لم يثبت تاريخيا وان الحادثة ذكرت في بعض وليس جميع المصادر العثمانية التي تناولت تلك الحقبة وان الهدف منها تجميل صورة السلطان سليم واضفاء طابع الانسانية على العثمتانيين .

بمقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة رسمياً عام ١٥١٧، واصبحت مصر ولاية عثمانية لاسيما بعد تنازل المتوكل على الله العباسي عن الخلافة العباسية للعثمانين ، الذين نصبوا ولاة موالين لهم واصبح الخراج يرسل الى الاستانة عاصمة الدولة العثمانية.[65]

الخاتمة

كما اسلفنا فأن مصر كانت خاضعة لحكم المماليك الشراكسة وكان حكمهم كما يبدو ضعيفاً هشاً ، فقد انغمسوا بالاضطرابات والفتن الداخلية فيما بينهم تاركين مقاليد الحكم لصغار القادة.

فضلا عن ذلك ، بقيت هياكل الدولة المملوكة ضعيفة ومتهالكة ولم يصبها التطور هذا ما دفع العثمانين لمحاولة السيطرة على البلاد وقد بدء التفوق العثماني على المماليك منذ معركة مرج دابق عام ١٥١٦ حينما استخدموا الاسلحة المتطورة كالبنادق والمدافع في حين كان المماليك يقاتلون باسلحة بدائية جداً.

حاول طومان باي بعد توليه حكم البلاد ان يغير من نمط العسكرية المملوكية وهذا ما دفعه الى شراء اسلحة من البندقية لكن الوقت لم يسعفه لتطوير الدولة لاسيما وان العثمانين كانوا يقفون على ابواب القاهرة.

كان السلطان العثماني سليم الاول يهدف الى ضم مصر الى حاضرة دولته لتحقيق اهدافه السياسية والاقتصادية ، فموقع مصر الجغرافي كان مغرياً له للسيطرة على البحار المتوسط والاحمر ، ذلك يتيح للدولة العثمانية التحرك بحرية باتجاه اوربا. زيادة على ذلك فان خيرات مصر ستكون في خدمة الدولة ويعزز ايرادات الخزينة ويتيح للجيش العثماني ديمومة الموارد التي يحتاجها في حملاته .

تعرض طومان باي الى الخيانة من اقرب المقربين اليه ابتداءاً من المماليك الذين تركوه يواجه مصيره بنفسه وانتهاءاً بخيانة اقرب اصدقاءه.

كان السلطان سليم معجباً بشجاعة طومان باي ولم يكن يدور في خلده أعدامه لكن الوشايات من حاشيته عجلت في اعدامه ، لاسيما وان طومان باي كان يحظى بشعبية من العوام وعدد من الامراء والمماليك ، فكان اعدامه لابد منه كي يقطع اخر امل للماليك في العودة الى حكم الديار المصرية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

١-أبن إياس ، محمد بن احمد الحنفي ت (١٥٢٤) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج٣ ، القاهرة ، د.ت.
٢-ابن زنبل ، احمد بن علي الرمال ، أخرة المماليك او واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني ، ترجمة عبد المنعم عامر ،ط٢ ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، ١٩٩٨.

ثانياً : المراجع العربية

١-احمد الامامي ، الخلافة العباسية في القاهرة ،ط٢، القاهرة، د.ت.
٢-احمد عزيز بك ، مختصر حوادث القاهرة،ط٢، القاهرة ، د.ت.
٣- ايناس حسني ، دولة المماليك البداية والنهاية ، الاسكندرية ، ٢٠١٥.
٤-جرجي زيدان ، مصر العثمانية ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة، ٢٠١٨.
٥-جلال يحيى ، المدخل الى تاريخ العالم العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥.
٦- حسن اسامة،طومان باي آخر سلاطين المماليك ، دار الامل للنشر، القاهرة، د.ت.
٧-حلمي بك داود ، صراع الدولة العثمانية مع العرب ، ط٢ ، بيروت، ١٩٦١.
٨-خالد عزب ، الفسطاط ، النشأة والازدهار ، دار الافاق العربية ، القاهرة، د.ت.
٩-سامي عبد العليم ، تاريخ مصر المحروسة ، ج٢ ، دار النهار ، بيروت ، د.ت.
١٠- سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المملوكي في مصر والشام ، ط٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٥.
١١- السيد الباز العريني، المماليك ، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

١٢- سيد محمد سيد ، احوال مصر اواخر العهد المملوكي ، ط٢ ، القاهرة ، د.ت.
١٣- عبد السيد حكيم ، قيام دولة المماليك الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٤ .
١٤- عبد الله عبد الرزاق ابراهيم وشوقي الجمل ، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
١٥- عماد الشماع ، احياء مصر القديمة، دار المنيرة للنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢.
١٦- عماد عبد ربه، مساجد القاهرة القديمة ، ط٢ ، القاهرة ، د.ت.
١٧- عمر كمال أوغلو ، الوجيز في تاريخ الدولة العثمانية ،ط٢ ، بيروت، ١٩٥٨.
١٨- فؤاد بعلبكي ، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ، ط٢،دار النجاة، دمشق، ١٩٦٨.
١٩- فؤاد علي متولي ، تاريخ المماليك في مصر، دار الارقم ، دمشق ، د.ت.
٢٠- قاسم عبده ، عصر سلاطين المماليك ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤.
٢١- قدري أغا شكري ، الفتح العثماني لمصر ، د.م .ن، د.ت.
٢٢- محمد التونجي ، بلاد الشام في العهد العثماني ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٤.
٢٣- محمد حليم زاده، العلاقات العثمانية – الصفوية ، ط٢ ، دار النقاش، بيروت، ١٩٦١.
٢٤- محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ١٢٥٠-١٥١٧، دار النفائس ، بيروت ، ٢٠٠٥.
٢٥- محمد طاهر سحري، مختصر تاريخ الدولة العثمانية ،ج١، مطبعة المعارف ، الجزائر، ٢٠٠٨.
٢٦- محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط ، بيروت، ٢٠٠٥.
٢٧- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي ، دار النقاش ، بيروت، ١٩٨١.

٢٨- محمود محمد الحويري ، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى ، القاهرة ، ٢٠٠١.
٢٩- مصطفى احمد عبد الرحيم ، اصول التاريخ العثماني ،ط٢ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٦.
٣٠- مصطفى السيد محمود ، مصر المملوكية ، القاهرة ، د.ت.
٣١- مفيد الزيدي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ، عصر المماليك ، عمان، ٢٠٠٢.

ثالثاً : المراجع المعربة

١-حسين مرزه زاده ، العلاقات الصفوية المملوكية حتى عام ١٥١٧ ، ترجمة عبد المنعم عبد الله ، مؤسسة الحوراء ، طهران، ١٩٨٦.
٢-رونالد ولبر ، ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة عبد النعيم محمد، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٥.
٣- شوجر بيتر، اوربا العثمانية ١٣٥٤-١٨٠٤ ، ترجمة عاصم الدسوقي ، ط٢، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٨.
٤-نيقولاي أيفانوف، الفتح العثماني للاقطار العربية ١٥١٦ -١٥٧٤ ، ترجمة محمد أبو الشامات ، دار الفارابي ، بيروت، ١٩٨٨.
٥- يوجين روجان ، تاريخ العرب من الفتوحات العثمانية الى الوقت الحاضر، ترجمة محمد ابراهيم الجندي ، مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر، القاهرة ، ٢٠١١ .

رابعاً : البحوث والدراسات .

-عزت ابو الفتوح، سقوط المماليك في مصر، الاسباب والنتائج، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٣، تموز ١٩٨٦.

الهوامش:

١-[0] هو قانصوه بن ببري الغوري من الشراكسة ولد في حلب سنة ١٤٤٦، ارتقى عدة مناصب حتى تولى حجابه الحجاب في حلب ثم وزيراً في دولة

الاشرف جنبلاط بويع بالسلطنة سنة ١٥٠٠، وظل يحكم في مصر والشام، فقتل في معركة مرج دابق شمال حلب سنة ١٥١٦. ينظر مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ الاسلامي، عصر المماليك، عمان، ٢٠٠٢، ص ٢٢٣.

٢- هو السلطان الحادي والاربعون من ملوك الترك واولادهم بالديار المصرية وهو الخامس عشر من ملوك الشراكسة، جلبه الى مصر الخواجة محمود سنة تسع وثلاثون وثمانمائة فاشتراه منه الملك أشرف برسباي. ينظر: أبن إياس، محمد بن احمد الحنفي ت (١٥٢٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج٣، القاهرة، د.ت، ص ٣.

٣- مصطفى السيد محمود، مصر المملوكية، القاهرة، د.ت، ص ٦٣.

٤- عبد الله عبد الرزاق ابراهيم وشوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٢٧.

٥- فؤاد علي متولي، تاريخ المماليك في مصر، دار الارقم، دمشق، د.ت، ص ١٤٦.

٦- مصطفى السيد محمود، المصدر السابق، ص ٧٩.

٧- ابن زنبل، احمد بن علي الرمال ت (١٥٧٢)، أخرة المماليك او واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، ترجمة عبد المنعم عامر، ط٢، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٨١.

٨- حسن اسامة، طومان باي آخر سلاطين المماليك، دار الامل للنشر، القاهرة، د.ت، ص ٩١.

٩- ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩.

١٠- السيد الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص ١٢٩.

١١- حسن اسامة، المصدر السابق، ص ٩٨.

١٢- المصدر نفسه، ص ٩٩.

١٣- وقعت المعركة في حلب بالقرب من قرية مرج دابق في بلدة عزاز في ٨ آب ١٥١٦ بين الجيش المملوكي بقيادة قانصوه الغوري والجيش العثماني بقيادة سليم الاول وقد هزم المماليك في تلك المعركة بسبب خيانة بعض قادة جيش المماليك فضلا عن استخدام العثمانيين للمدافع التي احدثت فرقاً في سير المعركة. للمزيد ينظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي، دار النفاش، بيروت، ١٩٨١، ص ١٩٢.

١٤- قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٨٧.

١٥- [0] محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ١٢٥٠-١٥١٧، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٨٣.
١٦- [0] أبن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٨٣.
١٧- [0] هو الشيخ شمس الدين ابو عبد الله من كبار المتصوفة في مصر، لا يعرف بالتحديد وقت ولادته لكنه عاش في عهد اخر السلاطين المماليك الاشرف طومان باي، كان يتمتع بقوة شرعية بحيث كان يعزل ويولي وهذه القوة كانت ناتجة من ثقة السلطان به وبحسن درايته توفي سنة ١٥٢٤ ودفن في زاويته التي كان يعتكف بها بكوم الجارح بالقاهرة. ينظر عماد عبد ربه، مساجد القاهرة القديمة، ط٢، القاهرة، د.ت، ص ٧٤.
١٨- [0] عبد السيد حكيم، قيام دولة المماليك الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٨٨.
١٩- [0] فؤاد علي متولي، المصدر السابق، ص ١٤٨.
٢٠- [0] قدري أغا شكري، الفتح العثماني لمصر، د.م. ن، د.ت، ص ١٠٢.
٢١- [0] خليل قلعجي، سقوط المماليك في مصر، ط٢، بيروت، د.ت، ص ٩٣.
٢٢- [0] قدري أغا شكري، المصدر السابق، ص ١٠٤.
٢٣- [0] المصدر نفسه، ص ١٠٥.
٢٤- [0] عبد الله عبد الرزاق وشوقي الجمل، المصدر السابق، ص ٢٢.
٢٥- [0] محمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢١٩.
٢٦- [0] الريدانية قرية صغيرة تقع على الطريق بين بركة الحاج والقاهرة، وتعرف حالياً بحي العباسية. ينظر: محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٢١٢.
٢٧- [0] نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ -١٥٧٤، ترجمة محمد أبو الشامات، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٨٩.
٢٨- [0] عزت ابو الفتوح، سقوط المماليك في مصر، الاسباب والنتائج، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٣، تموز ١٩٨٦، ص ٦٥.
٢٩- [0] نيقولاي ايفانوف، المصدر السابق، ص ٩١.
٣٠- [0] هو اسماعيل بن حيدر بن جنيد الصفوي، ولد في مدينة اردبيل سنة ١٤٨٧، تلقى علومه الدينية في زندان، عاش بعد وفاة والده في كنف حاكم لاهيجان الذي دربه على مبادئ الفروسية حتى أصبح قائداً للفرسان، تمكن من خوض معارك عديدة ضد حكام بعض المناطق في إيران حتى اخضعهم ودخل مدينة تبريز وتوج ملكا على إيران، اتخذ من المذهب الشيعي الاثني

عشري ديناً رسمياً للدولة، توفي في ٢٣ حزيران ١٥٢٤ ودفن في مسقط رأسه اردبيل. ينظر: رونالد ولبر، إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم محمد، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٥، ص ٥٩.

٣١- 0 وقعت المعركة بين الجيش العثماني بقيادة سليم الاول والجيش الصفوي بقيادة الشاه اسماعيل في ٢٣ آب ١٥١٤، انتصر فيها العثمانيين على الجيش الصفوي الذي فقد اغلب قادته ودخل العثمانيين مدينة تبريز العاصمة وامر السلطان العثماني باستباحة المدينة ونهب ثروات الصفويين وارسلها الى العاصمة العثمانية، ينظر: محمد حليم زاده، العلاقات العثمانية– الصفوية، ط٢، دار النقاش، بيروت، ١٩٦١، ص ٥٥.

٣٢- 0 حسين مرزه زاده، العلاقات الصفوية المملوكية حتى عام ١٥١٧، ترجمة عبد المنعم عبد الله، مؤسسة الحوراء، طهران، ١٩٨٦، ص ١٨٣.

٣٣- 0 ولد سليم الاول في اماسيا عام ١٤٧٠، وهو تاسع سلاطين الدولة العثمانية، وصل الى العرش بعد ان انقلب على والده بايزيد الثاني ١٥١٢، بدعم من الإنكشارية، تميز عهده بان الفتوحات توقفت في غرب اوروبا وتحولت الى المشرق العربي، تمكن من الانتصار على الصفويين في معركة جالديران عام ١٥١٤ ودخل تبريز واحتل بلاد الشام بعد موقعة مرج دابق عام ١٥١٦ وفتح مصر عام ١٥١٧ وأنهى حكم المماليك توفي إثر اصابته بمرض السرطان ودفن في مسجده بإسطنبول عام ١٥٢٠. ينظر: فؤاد بعلبكي، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية، ط٢، دار النجاة، دمشق، ١٩٦٨، ص ٦٥.

٣٤- 0 جلال يحيى، المدخل الى تاريخ العالم العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٧٧.

٣٥- 0 محمود محمد الحويري، المصدر السابق، ص ٢١٩.

٣٦- 0 ابن اياس، بدائع الزهر، ج٥، ص ١٢٥.

٣٧- 0 المصدر نفسه، ص ١٢٦.

٣٨- 0 نيقولاي ايفانوف ، المصدر السابق، ص ٨٦.

٣٩- 0 ولد في البوسنة عام ١٤٥٩ ، ينتمي لاسرة مسيحية ، دخل في طاعة الدولة العثمانية حتى اصبح حاكم ولاية الاناضول ، أشترك في معارك ضد الصفويين عينه سليم الاول صدراً أغظم في ٢٥ نيسان ١٥١٦ ، كان له دور كبير في فتح بلاد الشام، قتل في معركة الريدانية عام ١٥١٧ . ينظر : محمود محمد الحويري ، المصدر السابق، ص ٩٤. .

٤٠- 0 أبن إياس ، بدائع الزهور ،ج٥،ص ١٢٧.

٤١- [0] محمد طاهر سحري، مختصر تاريخ الدولة العثمانية ،ج١، مطبعة المعارف ، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ١٢٤.
٤٢- [0] مدينة قديمة تاسست في عهد عمر بن العاص عام ٦٤١ هجرية ،تقع على ساحل النيل من الطرف الشمالي الشرقي ، قبل مدينة القاهرة بحوالي ميلين . للمزيد ينظر: خالد عزب ، الفسطاط، النشأة والازدهار ، دار الافاق العربية ، القاهرة، د.ت، ص ٦.
٤٣- [0] عمر كمال أوغلو ، الوجيز في تاريخ الدولة العثمانية ،ط٢ ، بيروت، ١٩٥٨ ، ص ٩٣.
٤٤- [0] محمد طاهر سحري ، المصدر السابق ، ص ١٢٦.
٤٥- [0] هو محمد بن يعقوب بن عبد العزيز ، آخر الخلفاء العباسين الذين نقلوا دولتهم الى القاهرة بعدسقوط بغداد على يد هولاكو عام ١٢٥٨ ، وكانت خلافتهم في القاهرة صورية ، حيث كانت السلطة الفعلية بيد المماليك ، توفي عام ١٥٣٤. ينظر : احمد الامامي ، الخلافة العباسية في القاهرة ،ط٢، القاهرة، د.ت، ص ١٥٩.
٤٦- [0] عمر كمال أوغلو ، المصدر السابق، ص ١٢٩.
٤٧- [0] من القرى القديمة التي ترجع الى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي انشأها عام ١٣١٣ واصبحت فيما بعد من الاحياء الشعبية الاكثر كثافة في مصر . ينظر: عماد الشماع، احياء مصر القديمة، دار المنيرة للنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢، ص ٨.
٤٨- [0] احمد عزيز بك ، مختصر حوادث القاهرة،ط٢، القاهرة ، د.ت ، ص ٢٥٩.
٤٩- [0] سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المملوكي في مصر والشام ، ط٢ ، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٩٥، ص ٨٤.
٥٠- [0] جرجي زيدان ، مصر العثمانية ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ،٢٠١٨ ، ص ٥٠.
٥١- [0] ايناس حسني ، دولة المماليك البداية والنهاية ، الاسكندرية ، ٢٠١٥ ، ص ٢١٣.
٥٢- [0] ولد في حلب عام ١٤٢٤ ، وهو شركسي الاصل ، كان قائداً للحملة التي ارسلها قانصوة الغوري لمقاتلة العثمانين في الشام ، الا انه فر من ارض المعركة ودخل في طاعة العثمانين قبل معركة مرج دابق كافئه العثمانين بان ولوه على ولاية دمشق نضير خدماته ، توفي عام ١٥٢١ . ينظر فؤاد علي متولي ، المصدر السابق، ص ٩٣.

(١) ولد في أماسيا عام ١٤٣٨ ، تدرب على الفروسية وشارك في اغلب الحملات العثمانية في الشرق العربي، تدرج بالوظائف الادارية حتى اصبح الصدر الاعظم في عهد السلطان سليم الاول في ٢٢ تشرين الاول ١٥١٧ ، شارك في حملة فتح مصر ،واصبح والياً عليها ،توفي في ٢٣ كانون الاول ١٥١٨ . للمزيد ينظر : شوجر بيتر، اوربا العثمانية ١٣٥٤-١٨٠٤ ، ترجمة عاصم الدسوقي ، ط٢، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٨، ص ١٢٤.

٥٣- 0 هو إياس محمد باشا ، ولد في فلورا عام ١٤٨٣ ، التحق بالانكشارية وشارك في معارك عديدة مثل جالديران ومرج دابق وفتح مصر على يد السلطان سليم الاول ، ثم اصبح واليا على دمشق عام ١٥٢٠ ، تقلد منصب الصدر الاعظم سنة ١٥٣٦ وبقي في منصبه حتى اصيب بمرض الطاعون وتوفي سنة ١٥٣٩ . ينظر : محمد حليم زاده ، المصدر السابق، ص ٧٧.

٥٤- 0 سامي عبد العليم ، تاريخ مصر المحروسة ، ج٢ ، دار النهار ، بيروت ، د.ت ، ص ٢٥٥.

٥٥- 0 ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ١٧٤.

٥٦- 0 مصطفى احمد عبد الرحيم ، اصول التاريخ العثماني ،ط٢ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٠١.

٥٧- 0 ابن زنبل ، المصدر السابق، ص ١٣٣.

٥٨- 0 يوجين روجان ، تاريخ العرب من الفتوحات العثمانية الى الوقت الحاضر، ترجمة محمد ابراهيم الجندي ، مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر، القاهرة ، ٢٠١١ ، ص ٣١.

٥٩- 0 مملوك شركسي ولد في بخارى وقدم كهدية للسطان الاشرف قايتاي ، تدرج في المناصب حتى اصبح حاجب الحجاب في عهد السلطان قانصوه الغوري ،ثم واليا على حلب عام ١٥٠٤ وبعد الفتح العثماني دخل في طاعة السلطان سليم الاول الذي عينه والياً على مصر نضير خدماته توفي عام ١٥٢٢ . ينظر : محمد التونجي ، بلاد الشام في العهد العثماني ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ٨١.

٦٠- 0 سيد محمد سيد ، احوال مصر اواخر العهد المملوكي ، ط٢ ، القاهرة ، د.ت، ص ١٢٣.

٦١- 0 محمد التونجي ، المصدر السابق، ص ٨٦.

٦٢- 0 قائد الانكشارية في القاهرة الي اخذ على عاقه مهمة تنفيذ حكم الاعدام بطومان باي بعد حملة فتح مصر عاد مع اسلطان وقتل في عهد السلطان سليمان القانوني . للمزيد ينظر ، المصدر نفسه ، ص ٨٩.

٦٣- () سعيد محمد سعيد ، المصدر السابق ، ص ١٢٤.
٦٤- () ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ١١٥.
٦٥- () حلمي بك داود ، صراع الدولة العثمانية مع العرب ، ط٢ ، بيروت، ١٩٦١، ص ١٧٥.